أهداف مقترحة
لمشروع الكتاب المرجع فى تاريخ الأمة العربية

أ . د . رءوف عباس حامد

يجمع المشتغلون بدراسة التاريخ حول طبيعته ؛ باعتباره محصلة تجارب الأمة بمختلف أبعادها : إنجازا وإخفاقا ، نهوضا وتعثرا ، وباعتبار دراسته استدعاء لذكراة الأمة للاستفادة من تلك التجارب تأكيدا لما هو إيجابى فيها ، واستفادة من الدروس التى تعلمتها الأمة من سلبياتها ؛ لذلك تحرص كل أمة من الأمم الراقية على أن يكون لها سجل يجمع تاريخها ، تستهدى به الأجيال المتعاقبة ، يعكف على كتابته فريق من أكثر مؤرخيها معرفة بأبعاد ذلك التاريخ ، وإدراكا لخطورة ذلك العمل ، وتأثيره البعيد على صياغة وعى جيل الشباب على وجه الخصوص ، باعتبار الشباب قادة الأمة فى المستقبل ودعامة نهضتها .

وليس القصد من وراء ضرورة وجود عمل جامع لتاريخ الأمة كتابة تاريخ « رسمى » للأمة ، تعتمده جهة علمية معينة ، وتجعل منه ناموسًا لا يجب أن يحيد عنه أحد ، فلسنا مما يؤمنون بحق جهة ما أن تصوغ التاريخ المتصل بأمة ما ؛ لتباين ذلك مع ضرورة ترك مساحة عريضة للمؤرخ للتعبير عن ذاته ، وعن رؤيته الخاصة لتاريخ أمته ، إذ لا يصح أن يوضع إطار محدد للمنهج الذى على المؤرخ أن يلتزمه عند الكتابة فى تاريخ الأمة ، وإلا كانت محصلة العمل – فى

نهاية المطاف – رؤية أحادية لتاريخ الأمة تحوم الشبهات حول مصداقيتها ، ومن ثم تقود الشباب المستهدف من وراء هذا العمل إلى نوع من الوعى الزائف بالتاريخ أو فقدان الثقة فى العمل ذاته ، عندما يكتشف أوجه القصور فيه ، التى قد تتمثل فى إلقاء الأضواء على عصر معين أو حدث محدد ، وحجبها عن عصر آخر ، وأحداث أخرى لأن « قولبة » تاريخ الأمة ، أى صبه فى قالب محدد لابد أن يؤدى إلى تقديم صورة مشوهة لهذا التاريخ . والالتزام الوحيد للمؤرخ الذى يشارك فى كتابة تاريخ أمته هو طرح الحقائق والاجتهاد فى تفسيرها بأكبر قدر من الموضوعية والحيدة ، دون أن يفقده ذلك الحق فى تفسير الأحداث التى يعرض لها فى إطار المدرسة التاريخية التى ينتمى إليها ، وكذلك الحق فى التعبير عن رؤيته الذاتية فيما يعرض له من أحداث ، وهنا يقع على عاتق محرر الكتاب مهمة تحقيق التناغم بين فصوله المختلفة .

ورغم أن الأمة العربية من أعرق الأمم تاريخا ، وأرسخها قدما فى صنع الحضارة ، إلا أننا لا نجد كتابا يجمع تاريخ هذه الأمة ، يتخذ مرجعا للشباب خاصة ، والمواطنين عامة ، يعودون إليه لاستكشاف ما غمض عليهم من تاريخ أمتهم ، ويسترجعون من خلاله ما مرت به أمتهم من تجارب ؛ إذ يغلب على الكتابة التاريخية فى الوطن العربى الاهتمام بتاريخ كل قطر من أقطار الوطن العربى على حدة . وما هو متاح من دراسات لتاريخ الأمة العربية نجده مشتتا فى كتابات المتخصصين فى مختلف العصور ، كالتاريخ القديم حيث تعانى المكتبة العربية فقرا ملحوظا فى المؤلفات التى تغطى تاريخ الأمة العربية القديم ، تحقق الربط بين حضارته القديمة وتاريخه القديم ودورهما فى صياغة جانب هام من

تراث الأمة، وعلى العكس من ذلك نجد فيضا زاخرًا من الكتابات التاريخية حول تاريخ الأمة منذ ظهور الإسلام وبزوغ فجر الثقافة العربية، ولكن معظم الكتابات تنصب على تاريخ الدول الإسلامية: قيامها، وسقوطها، وما ساهمت به فى الحضارة الإسلامية، كما أن الوطن العربى يذوب فى تلك الكتابات فى محيط العالم الإسلامى وقلما نجد من يهتم بإبراز دور الوطن العربى فى تلك المرحلة الهامة من تاريخه. ويلاحظ أن الاتجاه القطرى غلب على اهتمامات المؤرخين العرب الذين عالجوا التاريخ الإسلامى؛ فتجد العراقيين منهم يهتمون بتاريخ الدولة العباسية، والشوام يهتمون بتاريخ الدولة الأموية، والمصريين يهتمون بتاريخ الفاطميين والأيوبيين والمماليك، والمغاربة يعكفون على دراسة تاريخ الدول الإسلامية فى المغرب والأندلس، مما يعكس اتجاها ملحوظا لتغليب الصفة القطرية على التوجه القومى عند معالجة تاريخ الأمة العربية فى عصر من أزهى عصور ذلك التاريخ.

فإذا انتقلنا إلى معالجة العصر الحديث فى مؤلفات المؤرخين العرب تجلت لنا النزعة القطرية بأبشع صورها إذ صرف المؤرخون فى كل قطر من أقطار الأمة العربية جهودهم إلى دراسة تاريخ أقطارهم فى العصر الحديث، فإذا وجدت من عالج تاريخ العرب الحديث ككل، كنت أمام دراسات يشوبها الكثير من القصور، كتبت فى الغالب بجهود لتغطية مقرر دراسى فى التعليم العام أو الجامعى، وقلما تناولت تلك الكتب - على قلتها - الوطن العربى كله كوحدة واحدة، فألقى المشارقة الضوء على تاريخ المشرق العربى وتركوا المغرب العربى فى دائرة الظل، ورد المغاربة التحية بمثلها فركزوا على تاريخ المغرب دون أن

يحظى المشرق بقدر واف من اهتمامهم .

وترتب على ذلك نتائج خطيرة انعكست على ظاهرة غياب الوعى بالتاريخ عند شباب الأمة العربية ، الذين يطالعون كتبا فى مختلف مراحل التعليم لاتنمى الوعى بالتاريخ القومى ، بل على النقيض تدعم - بقصد أو بدون قصد - النزعة القطرية عندهم ، وخاصة أن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة تصب فى أذهانهم صباح مساء ما يدعم تلك النزعة ، ويساعد على تغييب الوعى بالتاريخ القومى .

من هنا تأتى أهمية مشروع تاريخ الأمة العربية فى عصر أصبحنا فيه أكثر عرضة من ذى قبل لمسخ هويتنا القومية فى ظل ما نتعرض له من دعاوى العولمة ، وفى ظل ثورة الاتصالات التى تضغط بإلحاح شديد على الشعوب ذات الثقافات العريقة لصالح الثقافة الغربية ، سعيا وراء تحقيق نوع جديد وخطير من الهيمنة على مقدرات تلك الشعوب وفك ارتباطها بتراثها القومى وتغييب وعيها بتاريخها القومى .

ولكن ، **ما الهدف من إعداد هذا المرجع لتاريخ الأمة العربية ؟**

فى تصورنا أن كتابة تاريخ الأمة العربية يجب أن يحقق ما يلى :

أولا : تأكيد وحدة تاريخ الأمة العربية منذ أقدم العصور حتى الآن من خلال الربط بين الموروث الثقافى من الحضارات القديمة التى قامت فى الوطن العربى - مهد الحضارة الإنسانية - وبيان كيف كان لذلك التراث دور إيجابى

فى بناء الحضارة العربية الإسلامية التى خلقت واقعا جديدا لعبت فيه الثقافة العربية دورا أساسيا فى دمج شعوب المنطقة التى تكون الوطن العربى فى إطار ثقافى واحد قائم على قاعدة التكامل الذى يحفظ لكل قطر خصوصيته ، ولكنه - فى نفس الوقت - يربطه بغيره من الأقطار العربية بوشائج متينة ، سداها الثقافة المشتركة ولحمتها ترابط المصالح وتشابكها ، وإطارها النضال المشترك ضد قوى العدوان الخارجى من الصليبيين والمغول إلى الاستعمار الغربى .

ثانيا : تنمية الوعى بالتاريخ من خلال ما يكشف عنه معالجة تاريخ الأمة العربية كوحدة بإبراز الدروس المستفادة من الكبوات والمحن التى أصابت الأمة فى مختلف عصور تاريخها عن طريق العرض الأمين لأوجه القصور التى أدت إلى تلك السلبيات وتفسيرها تفسيرا موضوعيا ، وبيان مدى الاستفادة من تلك الدروس فى العصور التالية ، ودور إغفال دلالات تلك الدروس فى تعريض الأمة لسلبيات أخرى فى عصور تالية ، وكذلك إبراز تجارب النهوض والصعود ، وتحليل العوامل التى ساعدت على تحقيقها وتفسيرها تفسيرا يكشف عن القوى الكامنة وراءها ، فوضع السلبيات والإيجابيات فى إطارها - دون تهوين أو تهويل - مع بيان علتها يشكل الدعامة الأساسية للوعى بالتاريخ .

ثالثا : تنمية الوعى القومى عن طريق إلقاء الضوء على عوامل الضعف والقوة فى تاريخ الأمة العربية عبر العصور ، وبيان كيف كانت القوة مرتبطة ، بتوحد وتكامل أقطار الأمة العربية والعكس بالعكس ، وهنا تحتاج معالجة تاريخ الأمة العربية فى العصر الحديث لمعالجة من نوع خاص ، تبرز الدور الذى لعبه

الاستعمار فى تجزئة الوطن العربى وقيام الكيانات القطرية، ودور النهب الاستعمارى للأمة العربية فى توجيه نموها الاقتصادى الوجهة التى حققت النزعة القطرية وأبرزتها. مع التركيز على الإمكانات المادية التى تشكل ركيزة التكامل بين مختلف أقطار الأمة العربية.

رابعا : تأكيد الهوية الثقافية للأمة العربية من خلال تقديم التطور التاريخى للفكر العربى، وإبراز القسمات المشتركة التى تجمع بين أقطار الأمة العربية فى منظومة القيم والعادات والتقاليد على وجه الخصوص من منظور الربط بين التطور الاجتماعى والتطور الثقافى، والتركيز على قدرة المجتمع العربى على هضم المؤثرات الوافدة واستيعابها وتمثلها فى إطار يتلاءم مع الشخصية العربية والمزاج الثقافى العربى. ومن أمثلة ذلك استيعاب الثقافة العربية للمؤثرات الثقافية فى العصر الإسلامى والعصر الحديث - على وجه الخصوص - والإسهامات الهامة للفكر العربى فى هذا المجال.

خامسا : إلقاء الضوء على تطور المجتمع العربى اقتصاديا واجتماعيا لإبراز التشابه النسبى بين ظروف التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مختلف أقطار الوطن العربى، وملاحظة القسمات المشتركة فى التكوينة الاجتماعية العربية، والعوامل التى تتوفر فى قطر دون آخر، وما ترتب على تحقق التكامل بينها فى بعض العصور من إيجابيات، وما نجم عن القصور فى تحقيق التكامل فى عصور أخرى من سلبيات، وتأثير ذلك على تطور المجتمع العربى عامة وانعكاساته على التطور الاجتماعى لأفكار الأمة العربية.

سادسا : بعث روح الأمل فى مستقبل الأمة العربية من خلال إبراز قدرة الأمة على تجاوز المحن وتخطى العثرات فى التجربة التاريخية مع بيان العوامل الإيجابية التى جعلت تحقيق النهوض ممكنا فى مختلف العصور ، وهنا يقع على عاتق من يعالجون الحقبة المعاصرة من تاريخ الأمة العربية فى هذا العمل توضيح الإمكانات المتاحة للأمة ، والسبل الممكنة لتحقيق الاستفادة المثلى منها لاجتياز هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الأمة ، والدور المحورى للتكامل العربى والتضامن لمواكبة الإيقاع السريع للتغير فى عالمنا الراهن .

تلك أهداف مقترحة نرى أن يضعها من يخططون لمشروع مرجع تاريخ الأمة العربية نصب أعينهم ، ونطرحها للنقاش على الزملاء لعل الحوار والتفاكر يساعدنا على صياغة الأهداف التى يرمى المشروع إلى تحقيقها ، ومن ثم يعيننا على رسم خطته على ضوء ذلك .

* * *

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF THE ARAB RESEARCH AND STUDIES
مصر المقر - جامعة الدول العربية